بلاغة السكاكي بين الإبداع والتقعيد: قراءة في أثر مفتاح العلوم على مسار البلاغة العربية

م.د ياسين خضير عبيس محسن

المديرية العامة للتربية في محافظة كربلاء المقدسة

ملخص:

يحتل السكاكي (ت٦٢٦هـ) منزلة مركزية في تاريخ البلاغة العربية، ليس فقط لأنه وضع كتابًا صار مرجعًا أساسيًا في الدراسات البلاغية، بل لأنه أحدث تحوّلًا جذريًا في طبيعة هذا العلم من كونه ممارسة نقدية ذات بعد أدبي وجمالي إلى علم عقلي قائم على التقعيد والتقسيم والتحديد. فقد جاء كتاب (مفتاح العلوم) ليجمع بين علوم متفرقة (النحو، الصرف، الاشتقاق، المعاني، البيان، البديع)، مقدّمًا لها في نسق واحد، مما جعل الكتاب بمثابة موسوعة لغوية بلاغية فلسفية.

من هنا تبرز إشكالية هذا البحث: كيف يمكن قراءة بلاغة السكاكي قراءة تتجاوز حدود التقعيد، وهل كان مشروعه البلاغي سببًا في انكماش البلاغة أم أنه أسّس لممارسة علمية مكنت اللاحقين من الاستمرار في دراسة هذا العلم؟.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، السكاكي، مفتاح العلوم، الإبداع، التقعيد.

Abstract:

Al-Sakkaki (d. 626 AH / 1229 CE) occupies a central position in the history of Arabic rhetoric, not only because he authored a work that became a foundational reference in rhetorical studies, but also because he brought about a radical transformation in the nature of this discipline—from a critical practice with literary and aesthetic dimensions into a rational science grounded in systematization, classification, and definition. His book *Miftāḥ al-ʿUlūm* (The Key to the Sciences) brought together various fields (grammar, morphology, derivation, semantics, rhetoric of expression, and embellishment) within a unified framework, rendering the work a comprehensive linguistic, rhetorical, and philosophical encyclopedia.

From this perspective, the central research problem emerges: how can Al-Sakkaki's rhetoric be reinterpreted beyond the limits of formal systematization? Furthermore, was his rhetorical project a cause of the contraction of rhetoric, or did it instead establish a scientific foundation that enabled subsequent scholars to sustain and further develop the study of this discipline?

Keywords: rhetoric, Al-Sakkaki, Miftāḥ al-ʿUlūm, creativity, systematization.

المقدمة:

مرّ المسار البلاغي العربي بمراحل مختلفة تمخضت عن تلك المراحل مدرستان تزامنتا مع نمو هذا العلم وتطوره، وهما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية، وقد أشار العسكري إلى المدرستين بقوله: "وليس الغرض من هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين و إنما قصدت فيه صناع الكلام من الشعراء والكتاب"[١]، ومثل المدرسة الأدبية: ابن المعتز (٢٩٦هـ) وأبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) وضياء الدين ابن الأثير (٦٣٣٧هـ)، وتميزت بكثرة الأمثلة، والشواهد الأدبية شعرا ونثرا، مع قلة في التعريف والقواعد والاقسام، واعتمادها في التقويم الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال بصورة اكثر من اعتمادها على المنطق والفلسفة المختلفة، وعلى ذلك فإن

[١] _كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢: ٩.

أسلوب ما أُلف فيها من كتب سهلة العبارات والوضوح، وتعنى هذه المدرسة بالتكوين الأدبي، والتمرين على صناعة الجيد من الكلام وتربية الذوق الناقد[٢].

وقد ظهرت المدرسة الكلامية نتيجة لتأثرها بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام، ومن أعلامها: الفخر الرازي (٦٠٦هـ) وأبو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) والخطيب القزويني (٧٣٧هـ)، واهتمت بتحرير المسائل وصياغة القواعد، ورسم الحدود بأسلوب منطقي جاف، وامتازت أيضا "بالتحديد اللفظي والروح الجدلية، والعناية بالتعريف الصحيح، والحرص على القاعدة المحددة مع الاقلال من الشواهد الأدبية والاعتماد على المقاييس الفلسفية من خلقيات وطبيعيات ونحوها، وعلى القواعد المنطقية في الحكم بحسن الكلام وجودته، أو قبحه ورداءته"[٣].

احتل السكاكي من تاريخ البلاغة العربية مرحلة متميزة، فقد نقل البلاغة من الاعتماد على المفاضلة بين جودة القول وركاكته، إلى علم يتقيد بأصول وقواعد، وفي هذا المسار اختلف قول العلماء والدارسين فيه، ومثّلت بذلك إشكالية طُرحت عبرها تساؤلات كثيرة لتحديد جهود السكاكي البلاغية وما بذله في ميدان البلاغة، ومميزات تلك الجهود وسلبياتها، كل ذلك عبر كتابه مفتاح العلوم.

أولا: التقسيم والتبويب في مفتاح العلوم

كان القرن السادس الهجري قرنًا معرفيًا بامتياز، إذ شهد ازدهارًا للعلوم العقلية مثل المنطق والفلسفة وعلم الكلام. كما اتسمت الحياة العلمية آنذاك بنزعة قوية نحو التقعيد والتصنيف، فظهرت الموسوعات في الفقه والأصول والنحو واللغة. هذا المناخ العلمي أثّر بوضوح على السكاكي الذي استوعب هذه الروح العقلية وضمنها في عمله.

كانت البلاغة قبل السكاكي، متأثرة بروح النقد الأدبي التي رسخها عبد القاهر الجرجاني، لكن مع السكاكي دخلت البلاغة في أفق جديد حيث ارتبطت بالفلسفة والمنطق، وأخذت طابعًا تعليميا صارمًا. وهذا ما يفسر سبب تعقيد كتابه "مفتاح العلوم" وصعوبة تلقيه على غير المتخصصين.

---

[٢] _ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب، امين الخولي، شركة مطابع الطنطاني، القاهرة: ١٢٦

[٣] _ م.ن: ١٢٦.

أثار السكاكي (٦٢٦هـ) عبر كتابه "مفتاح العلوم"[٤] سجالا بين الدارسين، وما زال هذا يتردد إلى اليوم، رغم تطور الدرس البلاغي العربي وإفادته بشكل كبير من البلاغة الجديدة، فقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: خصصه إلى علم الصرف والاشتقاق، والقسم الثاني إلى: علم النحو ومواضيعه، أما الثالث إلى: علمي المعاني والبيان، وأردف بعدهما بمبحث عن الفصاحة والبلاغة، وآخر عن البديع بمحسناته اللفظية والمعنوية. وقد حقق هذا القسم الثالث شيوعا وذيوعا كبيرا.

إذ قسّم البلاغة الى ثلاثة علوم، و"وضع للبلاغة قواعدها المنطقية، وقسمها الى المعاني والبيان وألحق بهما المحسنات، ووضع لكل علم تعريفا جامعا مانعا، وجدّد مباحثه وفنونه في قوالب جامدة"[٥]. على أن كتاب "المفتاح" لم يقتصر على البلاغة وعلمها فقط، بل خصص صاحبه أبوابا تتكامل مع البلاغة، منها: علم التصريف الذي فصل فيه السكاكي لعلم الاشتقاق وأنواعه، ومنها أيضا علم النحو، واتبع ذلك بدراسة لعلوم البلاغة، وقد صرح بذلك قائلا: "وقد ضمن كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيته لا بدّ منه، وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كلفت عنها القناع، وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه، بعلمي المعاني والبيان. ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر"[٦].

وقد تطرق السكاكي في كتابه الى علم المعاني والبيان وتعريفهما، وبيان أبوابهما كما تعارفنا عليه الآن، فالمعاني عنده: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[٧]. وفصل في أبوابه التي جاءت على: الخبر، والطلب المسند، والمسند إليه، وأحوالهما والفصل والوصل، والايجاز، والإطناب، وأسلوب القصر [٨].

---

[٤]_ له تآليف عديدة لم يصلنا منها غير كتاب المفتاح، ومن بينها: كتاب الجمل، وهو شرح لكتاب الجمل لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب التبيان والطلسم، وهو باللغة الفارسية، وله رسالة في علم المناظرة، لم تصلنا هذه للازمات التي حلت بالأمة العربية. ينظر: **سلسلة الحضارة العربية، جزء الاعلام والمشاهير، ١٩٨٨: ٤/١١.**

[٥]_البلاغة والتطبيق، احمد مطلوب وكامل حسن البصير، ط٢، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، ١٩٩٩: ٢٥٥.

[٦]_مفتاح العلوم، السكاكي، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ،١٩٨٧: ٨.

[٧]_مفتاح العلوم: ١٦١.

[٨]_ ينظر: م.ن

وعلم البيان عنده: "معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[٩]، وأبوابه عنده هي: المجاز، والتشبيه، والاستعارة، والكناية[١٠].

والمحسنات البديعية _ التي لم يجعلها علما خاصا _ هي عنده: المطابقة، والمقابلة، والمشاكلة، ومراعاة النظير والمزاوجة، واللف، والنشر، والجمع والتفريق والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، والابهام وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتوجيه وسوق المعلوم مساق غيره، والتجنيس والاشتقاق، ورد العجز على الصدر، والقلب والسجع والترصيع.

ولا بدّ من التعريج على الهدف، الذي كان يرمي إليه حينما ألف في البلاغة، ويرى الدكتور احمد مطلوب أن الهدف كان في إطارين، الأول ديني: لأن الفهم الصحيح لكتاب الله –عزّ وجل– يحتاج إلى البلاغة، والثاني: تعليمي أدبي؛ لأنه أراد أن يجمع شتات البلاغة، ويضع لها قواعد وأصول وتبويبها تبويبا جديدا، لتكون عونا للدارسين[١١].

وتكمن جهود السكاكي في أنّه أراد تخليص مما وقع فيه السلف من حشو، وتمثلت جهوده في: التقسيم والتبويب، وظهر ذلك في أنه أول من قسم البلاغة إلى معان وبيان وبديع، وأول من أطلق علم المعاني على المباحث التي سماها عبد القاهر (معاني النحو). وأول من اطلق على التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية (علم البيان)، وأول من أطلق على هذين العلمين (المحسنات)، وقسمها إلى: معنوية ولفظية، وساهم في تحديد مصطلحات البلاغة وتحديد حدِّ البلاغة وما رسمت عليه، فقد وضح مباحث من مثل: البلاغة والفصاحة، والخبر والطلب، وفرق بين التمثيل والتشبيه، وانفرد بآراء خاصة خالف بها سابقيه من أمثال عبد القاهر الجرجاني في التمثيل[١٢].

وعلى ذلك فالبحث البلاغي أغلق بابه، فما جاء بعد السكاكي عدّ تلخيصًا وشرحًا، ومصداق ذلك مثلًا كتاب "التلخيص" للخطيب القزويني (٧٣٩هـ) الذي يعدّ تلخيصا لكتاب المفتاح، ولم يكتفي بذلك بل ألف كتابه "الإيضاح" الذي يعدّ تلخيصا لكتابه التلخيص.

ثانيًا: بلاغة السكاكي في مفتاح العلوم بين الإبداع والتقعيد

---

[٩] _ م.ن: ١٢٦.

[١٠] _ينظر: م.ن.

[١١] _ينظر: بلاغة السكاكي، احمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط١، دار التضامن، بغداد، ١٣٨٤هـ –١٩٦٤م: ٢٠.

[١٢] _م.ن: ٣٢٥–٣٢٦.

ولد السكاكي في عصر راجت فيه الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وكثرت فيه الاختلافات في المسائل الكلامية والبحث والمناظرة، وانشغل الناس ولا سيما العلماء بدراسة الأصول والكلام، وإدخالها في مناهج البحث والاستعانة بها في علوم اللغة العربية. والسكاكي كان متكلما، وبذلك كان لثقافته أثر في منهجه وبلاغته.

ويمكن عدّ نتيجة تلاقح العلوم الأدبية الثلاثة قد جعل البلاغة في الكتاب تميل الى التعقيد والتقنين، وتصبح بعد ذلك مجرد قواعد ميسرة غرضها تعليميّ للبلاغيين الذين جاؤوا من بعد السكاكي ونهج نهجه في التأليف، وعلى ذلك شكل هذا القرن انكماشا للبلاغة العربية التي وصلت الى الانسداد والجمود فضلا عن "أسلوب تأليف المفتاح على طريقة الضبط والتقسيم والتحديد، والتدرج في توليد المسائل اللاحقة عن المسائل السابقة، والحوالة على قواعد العلوم الأخرى، وتعليل وجوه انحصار العلوم والأبواب فيما حوته من المسائل"[١٣]. وهذه الطريقة جعلت البلاغة قواعد جامدة تقدم معرفة علمية، فلا حسّ بياني، ولا روح أدبية، ولا تبِين عن الجمال ومكامنه في النصوص الأدبية.

إن سلوك السكاكي لمباحثه البلاغية بطريقة العلوم العقلية صعّبت فهم المراد من كلامه لغير المختصين في علوم البلاغة، فقد غلبت صبغة المنطق والأسلوب الغامض على هذا العلم، وقد خالف بذلك سابقيه من العلماء، يقول في ذلك الخطيب القزويني: "وهو وإن فاق عبد القاهر في التقسيم، والتبويب، وتقريب الأحكام، فلم يدرك شأوه في لطف الحس، وصفاء الديباجة، وبراعة الكلام"[١٤].

ربط السكاكي البلاغة بالفلسفة وعلم الكلام والمنطق حتى أدخل ذلك البلاغة في "عصور الملخصات والشروح والتعقيد والجمود... وتوالت الشروح تفك معميات هذا التلخيص وتلقانا أسراب تنحرف عن هذا الاتجاه ولكنها لا تكاد تضيف جديدا، ويلخص الخطيب القزويني مختصر السكاكي، ويذيع تلخيصه وتكثر الشروح عليه مليئة بأعشاب ضارة من الفلسفة والمنطق والكلام والأصول والنحو ومناقشات لفظية، حتى لتختنق البلاغة اختناقا، ويتكاثر التصنيف في البديع وتلخص فنونه..."[١٥]. فالعلوم المنطقية والكلامية – بحسب هذا النص– أثرت في مسيرة علم البلاغة، ودفعته الى غير غايته، وملئت الكتب البلاغية شوائب لا طائل منها.

---

[١٣] _جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الامام الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر الميساوي، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٥: ١٨٩.

[١٤] _التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٣٢ :٤.

[١٥] _البلاغة تطور وتاريخ:٦.

فالدراسون ربطوا بين الجمود والتعقيد الذي أصاب البلاغة وبين الفلسفة، سواء أكانت فلسفة عامة، ام فلسفة كلامية خاصة، وأول ما يُلاحظ هو ربط السكاكي للبلاغة بعلم الاستدلال، وقد ساوى بين عمل البلاغي وعمل صاحب الاستدلال، وبدا ذلك واضحا في تقسيمه لفنون البلاغة وضبط المسائل الخاصة بها، وتحديد ما تحويه من مواضع بينها وبين علوم اللغة أو أنواع الأدب، وعلى ذلك شغل الناس بهذا الحصر الذي اعتمد على الدلالات والمقاييس الفلسفية، فتمحور نقاش مستفيض عند المتأخرين أصبحت فيه البلاغة وكتبها ميدانا للسفسطة وذكر ما لا يمت إلى البلاغة بصلة[١٦].

وقد جعل السكاكي المعاني والبيان تتميما للنحو، ثم تنبّه إلى قيام المعاني على علم الاستدلال والحد فخاض فيهما حتى يقول: "ولما كان تمام علم المعاني بعلم الحد والاستدلال لم أر بدا من التمسح بهما"[١٧]. ويرى بعض الدارسين أن هذا الجانب الفلسفي او الطريقة التي اتبعها السكاكي في دراسة البلاغة تصلح لان تدّرس بها الفلسفة، والمباحث التي ذكرها في القسم الثالث من كتابه، فلسفها من حيث التبويب والتنظيم [١٨].

واهتم السكاكي بالتحديد المنطقي ومن هنا يتضح أثر المنطق، فقد أراد عبر هذا التحدي تعريفا جامعا مانعا لعلمي المعاني والبيان وتعريف المجاز[١٩]، وفي ادخال مصطلحات كثيرة من المنطق والفلسفة، وبذلك أصبحت تلك التعريفات على يديه جامعة مانعة كما يعبر عن ذلك أهل المنطق، وعلى ذلك عمل البلاغيون بعده ولم يضيفوا شيئا جديدا للمصطلحات وتحديدها، أو يعملوا أثرا واضحا وقيمة في تطور البلاغة [٢٠].

إن بلاغة السكاكي كما يراها العمري تولدت من مخاض بين النحو والمنطق والشعر، لأجل مشروع "علم الأدب"، وأن السكاكي اكتشف المنطقة الملتبسة التي اقتتل عليها متى بن يونس والسيرافي، وقد جعلها منطقة تعايش لا اقتتال، الأمر الذي جعله موضوع عناية اللسانيين والتداوليين والمناطقة والبلاغيين المقعدين اليوم [٢١].

وعن المعيارية التي اتهم بها السكاكي كثيرا، فقد تحولت البلاغة عنده إلى علم صارم له قواعد وتفريعات وتقسيمات، صدرت عن نزعة تعليمية منطقية، ويبدو ذلك في تقسيم البلاغة إلى ثلاثة

---

[١٦] _ينظر: بلاغة السكاكي: ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٧.

[١٧] _مفتاح العلوم: ٤٨٣.

[١٨] _ينظر: البلاغة المفترى عليها، فضل عباس: ١٤٦.

[١٩] _ينظر: بلاغة السكاكي:١٨٣

[٢٠] _ينظر: م.ن: ٢٩٥،٢٩٧.

[٢١] _ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: ٢٥.

علوم (المعاني والبيان) أما الثالث أطلق عليه بدر الدين بن مالك (البديع) فلم يعده مرجعا للبلاغة كالأولين، بل هو "وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام"، وكان أول من حصر مباحث البيان في التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية، وكان البلاغيون قبله يطلقون هذا المصطلح على البلاغة كلها، أما المعاني فلم نعرف أحدا قبل السكاكي استعمل هذا المصطلح، واطلقه على قسم من علوم البلاغة، وما كان يُعرف هو "معاني النحو"[٢٢]. وقد ردّ بعضهم هذا التقسيم ولم يقبله، فقال المراغي " ولا نرى لهذا التقسيم وجها صحيحا ولا مستندا من رواية ولا دراية"[٢٣]، فالرواية تثبت أن أبا هلال وابن سنان وعبد القاهر لم يعرفوا هذه القسمة، وقد وردت البلاغة عندهم ممتزجة غير مقسمة بهذا التقسيم، وورود مصطلحي البيان والبديع عند الزمخشري وابن المعتز وقدامة وابن رشيق بمعانٍ متداخلة، فقد اطلقوا البديع وارادوا ما يعم البيان، واطلقوا البيان وأُريد ما يعم البديع، ووضع تحت كل منهما ما هو حق أخيه بحسب ثلاثية السكاكي [٢٤]. "وأما الدراية لا تؤيده فذلك لأسباب منها أن الثمرة المستفادة من علم المعاني، وهي معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال، تستفاد أيضا من علم البيان والبديع، لأنا لا نعبر باستعارة ولا كناية إلا إذا اقتضاها المقام، فنوازن بين عدة تعبيرات ونرى أنسبها للحال بمراعاة حال السامع فنعبر به"[٢٥].

ويرى الدكتور احمد مطلوب أن تقسيم السكاكي وعدم اتخاذ القدماء لهذا النهج في التقسيم ليس دليلا على عدم قيمة عمله أو أن منهجه غير مستقيم[٢٦]، وقد أشاد ابن خلدون بتقسيم السكاكي، فقال في حديثه عن علم البيان "ثمّ لم تزل مسائل الفنّ تكمل شيئا فشيئا إلى أن محّص السّكاكي زبدته وهذّب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب، وألّف كتابه المسمّى بالمفتاح في النّحو والتّصريف والبيان فجعل هذا الفنّ من بعض أجزائه. وأخذه المتأخرون من كتابه ولخّصوا منه أمّهات هي المتداولة لهذا العهد"[٢٧].

كانت البلاغة قبل السكاكي شذرات مبعثرة في بطون المؤلفات، تسير بلا منهجٍ محدد ولا نظامٍ جامع، تلوّنها الفلسفة حينًا، ويغلب عليها الطابع الأدبي حينًا آخر، فلا تستوعب الفنون البلاغية كلّها، بل

---

[٢٢] _ينظر: بلاغة السكاكي: ٢٨٢،٢٩٢،٣٠٣.

[٢٣] _تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالاتها، احمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٥٠: ١١١.

[٢٤] _ينظر: م.ن: ١١٤-١١٥، و في البلاغة العربية والاسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مصلوح سعد عبد العزيز، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٣: ٣٣.

[٢٥] _ينظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالاتها: :١١٥-١١٦.

[٢٦] _ينظر: بلاغة السكاكي:١٢٥، ١٢٧.

[٢٧] _المقدمة، ابن خلدون، تحق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ٧٦١.

تختلط فيها معالم البيان بالبديع والمعاني، وكانوا كثيرًا ما يطلقون لفظ "البيان" وهم يقصدون به البلاغة بأسرها، ويقرنون البلاغة بالفصاحة اقترانًا لا فاصل بينهما. حتى جاء السكاكي، فمدّ يده إلى هذا الشتات، وفرز ونسّق وبوّب، ليضع الأصول الراسخة للدرس البلاغي التقليدي، ومنذ ذلك الحين كان "مفتاح العلوم" مقياسًا للاتباع والتقليد، كما أصبح معيارًا يُقاس به التجديد؛ فما خرج عن منهجه كان تجديدًا، وما التزمه كان تقليدًا. وهكذا استقرّت البلاغة في صورتها الموروثة، وأرسى السكاكي أركانها وقواعدها الراسخة.

وعن كثرة التقسيمات والتفريعات داخل علوم البلاغة الثلاثة، فيرى بعض الدارسين أن السكاكي " أشاع فيه كثيرا من العسر والالتواء، بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة، بل دعلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، ...وكثيرا ما تتراكم هذه الإشعاعات تراكما يحجب عنا تلك الخلايا الحية التي كنا نتمتع برؤيتها عند عبد القاهر والزمخشري"[٢٨]، إلا إنّ من أثقل ما وُسِمَت به البلاغة، ذلك الطابع المعياري الذي أُلصِق بها، وهي تهمةٌ لا تخلو من وجه صدق، كما لا تنفكّ عن وجهٍ آخر من المجانبة. فصدقها يتجلّى في ذلك الركام الهائل من القوانين والضوابط التي صاغها البلاغيون وجعلوها شروطًا أوليّة لإنتاج الكلام البليغ. غير أنّ بطلانها يظهر في أن هذه القوانين لم تنبثق من فراغٍ ذهني أو تصوّرٍ تجريدي محض، بل كانت ثمرة متابعة دقيقة ووصفية لنصوص أدبية قائمة، استُخلصت منها القواعد كما تُستخرج الجواهر من صميم المعدن[٢٩]، فما "أفادته البلاغة على يد السكاكي من حسن التنسيق والتبويب، ودقة التقسيم والتفصيل، وإحكام التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان، فإن هذا مما يحمده التاريخ للسكاكي، ولو سلم هذا القسم من مزجه بالعلوم العقلية، لكان هذا من خير المؤلفات التي ألفت في البلاغة في جميع عصورها"[٣٠].

على أن الباحث يتفق مع الرأي القائل بعدم استقرار موضوعات البلاغة عند السكاكي، فقد خلط بين مباحث متفرقة، فضمّ موضوعات من علم البديع إلى علم المعاني، وأدخل بعض قضايا البيان فيما عدّه غيره من مسائل المعاني. وقد أشار الدكتور أحمد مطلوب إلى ذلك بمثال بيّن، وهو تناول السكاكي للحقيقة العقلية والمجاز العقلي في علم البيان؛ إذ أنكر المجاز العقلي بعد أن بسط القول فيه، ومثّل له، وذكر أقسامه ومسائله، ثم رأى أن يُدرج هذا اللون من المجاز في سلك الاستعارة

---

[٢٨] _البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٩: دت: ٣١٣.

[٢٩] _ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية للنشر لونجمان، ط،٢: ٢٠٠٧م: ٢١.

[٣٠] _الصبغ البديعي في اللغة العربية. احمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1388هـ – ١٩٦٩م: ٢٤٩.

بالكناية [٣١]. أمّا شوقي ضيف، فيذهب إلى أنّ السكاكي قد خلط مسائل النحو بمباحث البلاغة، لاسيّما في حديثه عن الإسناد (المسند إليه والمسند)، حيث جمع في هذه الأبواب دررًا وحصى؛ فالدرر التقطها من مؤلفات عبد القاهر والزمخشري، وأمّا الحصى فاستقاه من كتب النحو واللغة [٣٢]. ومع ذلك، فقد أُعجب البلاغيون بطريقة السكاكي وأُسِروا بسحرها، على الرغم من إدراكهم ما يعتري منهجه من اضطراب، فساروا على نهجه دون محاولة جادّة لإصلاحه، مكتفين بملاحظات عارضة أبعدت البلاغة عن جوهر منهجه، دون أن تضع لها بديلًا متماسكًا [٣٣].

وعن التعقيد في كتاب المفتاح، فقد سيطرت النزعة الجدلية والأسلوب المعقد عليه، فالسكاكي عبّر عن المعنى بأسلوب ملتو، لا سلاسة فيه، وقد كان لهذا الأسلوب الأثر البالغ في البلاغة العربية والنقد الأدبي[٣٤]، فضلا عن خروج البلاغة من الفنية إلى العلمية التي افقدتها روحها، وكثرت معها الدعوات إلى هجرة هذه البلاغة[٣٥].

"وعلى الرغم من اتهام السكاكي بانحطاط البلاغة على يديه وتحويلها إلى علم جامد، إلا أنني أجد فيه أفضل من خدم المصطلح البلاغي، وحدده عن طريق استقرائه لمؤلفات من سبقه، لذا كثرت بعده الشروح والتلخيصات، كما اعتمد على منهجه الكتاب والمؤلفون حتى يومنا هذا، مما يشير إلى عناية المختصين بكتابه "مفتاح العلوم" برغم ادعاء الكثير منهم تحررهم منه، فما زال التقسيم الثلاثي الذي وضعه كما هو، وما زالت الشواهد التي اختارها من سابقيه تتكرر في المؤلفات البلاغية"[٣٦].

أما فضل عباس فيقول: "صحيح أن السكاكي سلب بلاغة عبد القاهر هذه السمات الأدبية، وهذا الأسلوب الذي يستند إلى الذوق والقاعدة معا، ولكن ينبغي أن لا ننسى ولا يجوز أن ننسى أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدد لها مصطلحاتها تحديدا تاما، ومن يفصل مسائلها، ويفصل بعضها عن بعض، وتلك حسنة لا ينبغي أن تغفل، ولكن الكثيرين سامحهم الله لا يذكرون إلا السلبيات"[٣٧].

فإذا جمعنا بين هذين الرأيين، بدا لنا السكاكي وجهًا ذا بعدين؛ فمن جهةٍ اتُّهم بأنّه جَمّد البلاغة وحوّلها إلى قوالب جامدة، ونزع عنها روحها الأدبية التي أرسى دعائمها عبد القاهر، ومن جهةٍ أخرى

---

[٣١] _ينظر: بلاغة السكاكي:١٣٥.

[٣٢] _ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: ٢٩٦.

[٣٣] _ينظر: بلاغة السكاكي: ١٤٦.

[٣٤] _ينظر: م.ن: ١٧٢.

[٣٥] _ينظر: مناهج التجديد، امين الخولي:١٧٥.

[٣٦] _الدلالة والمعنى، محمد جاسم: ٦.

[٣٧] _البلاغة المفترى عليها:١٤٥.

لا يمكن إنكار أنّه كان الأقدر على ضبط مصطلحاتها وتحديد مفاهيمها وتفصيل مسائلها، حتى استقرت على يديه معالم الدرس البلاغي. ولولا جهده في التبويب والتقعيد، لما تسنّى لمن جاء بعده أن ينهلوا من معين البلاغة في صورة أوضح وأرسخ. وهكذا، فإن السكاكي وإن بدا للبعض حجرًا أثقل جناح البلاغة، فقد كان في الوقت نفسه العمود الذي شدّ بنيانها، فبقي أثره ممتدًا في كتب البلاغة إلى يومنا هذا، شاهداً على أنّ النقد وحده لا يمحو الفضل، وأنّ ما يُحسب على الرجل من هنّات، لا يحجب ما له من حسنات.

ومما تقدم يمكن عدّ موقف السكاكي وتقسيمه لعلوم البلاغة وما ابتدعه في ذلك من آراء بلاغية كان قد شغل العلماء والدارسين بعده وهيمن على مؤلفاتهم كثيرًا، وقد حاز السبق في ذلك خاصة فيما يتعلق بتنظيم البلاغة وتقسيمها وتبويبها، واجتهاد بعض المصطلحات فيها، هذه الجهود التي لقيت عناية وتقدير من علماء البيان، وهو ما دفع ابن خلدون إلى عدّ السكاكي المؤسس الحقيقي للبلاغة العربية، بقوله: "ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته، وهذّب مسائله، ورتب أبوابه"[٣٨]. فقد أجاد في تبويب الفنون البلاغية وجمعها، فاخرج علم البلاغة من التصور الى التقنين والتقعيد، الأمر الذي أثر فيمن جاء بعده، فالبلاغة قبل السكاكي "كأنّها جذاذات من الورق، في كل قطعة منها مسألة، ويختلف ترتيب هذه المسائل في الكتب البلاغية كما يختلف ترتيب هذه الجذاذات قبل أن تمتد نحوها يد تنظم وتنسق"[٣٩]. وقد تميزت البلاغة على يديه وجعلها بمنهج خاص عرض فيه للمادة العلمية بصورة متقنة استقطبت أقلام الباحثين وانظارهم ممن جاء بعده.

[٣٨] _مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٤٠٦هـ: ٢٥٢.

[٣٩] _الصبغ البديعي في اللغة العربية، احمد ابراهيم موسى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٩ : ٥٩٧.

الخاتمة:

- احتل السكاكي مكانة محورية في تاريخ البلاغة العربية؛ إذ نقلها من طور النقد الأدبي الذوقي الذي مثّله عبد القاهر الجرجاني، إلى طور التقعيد العقلي المنهجي.
- كان أول من قسّم علوم البلاغة إلى المعاني، البيان، البديع، وهو تقسيم ظلّ ثابتًا حتى اليوم.
- أسهم في ضبط المصطلح البلاغي، وتوضيح الحدود الفاصلة بين علوم البلاغة، وصياغة تعاريف دقيقة جامعة مانعة.
- اتُّهم بجعل البلاغة علماً جامداً، وفصلها عن روحها الأدبية الجمالية، نتيجة هيمنة النزعة الفلسفية والمنطقية على منهجه.
- صار كتابه مفتاح العلوم المرجع الأساس لمن جاء بعده، فكثر التلخيص والشرح حوله، وظلّ أثره ممتدًا في الدراسات البلاغية حتى العصر الحديث.
- رأى بعض الدارسين أنه جَمَّد البلاغة، ورأى آخرون أنّه أنقذها من التشتت وحدّد مصطلحاتها بدقة، مما يجعل إرثه متأرجحًا بين النقد والإشادة.
- السكاكي العمود الذي شُدَّ به بنيان البلاغة التقليدية، رغم ما يعتري منهجه من تعقيد وجدلية، فقد هيمن أثره على الدرس البلاغي قرونًا طويلة، جامعًا بين الحسنات والهنات في آن واحد.

المصادر والمراجع:

١- بلاغة السكاكي، احمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط١، دار التضامن، بغداد، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.

٢- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ١٩٩٩.

٣- البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية للنشر لونجمان، ط٢، ٢٠٠٧م.

٤- البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، فضل عباس، دار النور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٩.

٥- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٩: دت.

٦- البلاغة والتطبيق، احمد مطلوب وكامل حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، ط٢، ١٩٩٩.

٧- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالاتها، احمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٥٠.

٨- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٣٢ .

٩- جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الامام الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر الميساوي، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.
١٠- المعنى والدلالة في البلاغة العربية، دراسة تحليلية لعلم البيان، محمد جاسم جبارة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣.
١١- سلسلة الحضارة العربية، جزء الاعلام والمشاهير، ١٩٨٨: ٤/١١.
١٢- الصبغ البديعي في اللغة العربية. احمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1388هـ - ١٩٦٩م.
١٣- في البلاغة العربية والاسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مصلوح سعد عبد العزيز، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ط١، ٢٠٠٣.
١٤- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢.
١٥- مفتاح العلوم، السكاكي، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ،١٩٨٧.
١٦- المقدمة، ابن خلدون، تحق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط،٢: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
١٧- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب، امين الخولي، شركة مطابع الطنطاني، القاهرة.